نشأة

الديانة المسيحية في لبنان

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت

حضرة الخوري بطرس غالب

٢

واما بيروت الفتانة حبيبة الامبراطرة ومنارة العلوم فان تسيطرها الادبي والمعنوي قد تعدّى حدود الشرق الادنى ، واصبح اساتذتها وتلاميذها مرجع العلوم الفقهية وتنظم القوانين

روى القديس اقليمس تلميذ الرسل ان القديس بطرس نزل هذه المدينة وحمل الشعب على طرد سمعان الساحر بعد ان اوسعوه ضرباً هو ورفقاؤه ، وأسس فيها اسقفية ولّى عليها كوارتوس احد السبعين تلميذاً . وقال ابن العبري ان القديس يهوذا الملقّب بتداوس بذل فيها نفسه شهادةً للحق فبنيت على اسمه كنيسة يرجح انها أُقيمت في الموضع الذي رجم فيه، وفيها حفظ جسده زماناً طويلاً. وهو اول الشهداء الذين ارسلوا على بيروت نوراً ساطعاً لا نظير له . وفي هذه المدينة مسقط راس القديس بمفيلوس ، العالم الشهير ، الذي خلف اوريجانوس في ادارة مدرسة الاسكندرية ، ووضع تآليف قيّمة في شرح الكتاب المقدس ، وأسس مكتبة شهيرة في قيسارية فلسطين ، حيث قُتل بغضاً بالمسيح سنة ٣٠٩ . ومن شهدائها القديسان يوحنا واركاديوس . ومنهم اثنان من نيقية احد تلاميذ مدرسة الحقوق، وكان من ذوي الشهرة الواسعة، استشهد ولم يتجاوز العشرين ربيعاً

وحضر اساقفة هذه المدينة المجامع التي عقدت في الشرق فكان غريغوريوس من آباء المجمع النيقاوي ، وتيموتاوس من جملة الذين وافقوا على المجمع القسطنطيني الاول المنعقد عام ٣٨١ . وجعل اوستاتيوس احد خلفائهما كرسيه مستقلاً من كرسي صور، فاحتج فوتيوس رئيس اساقفتها، غير ان الامبراطور تيودوسيوس الثاني لم يكترث

لهذه الاحتجاجات بما انه كان يرغب في ان يكافئ اوستاتيوس ، نظير مقدرته على ايجاد طريقة وفّق بها بين الكاثوليك والنساطرة ، فارضى الطرفين وهدأ الحال بينهما . وكان قد عقد لهذا الغرض مجلسان : اولهما في بيروت ، والآخر في صور ، لمحاكمة ايباس اسقف الرها مشايع نسطوريوس . وكان ايباس ادهى من اوستاتيوس وفوتيوس فخدعهما . وبنى الاسقف يوحنا بالاتفاق مع القديس رابولا السيماطي ديراً كبيراً في الجبل في محل غير بعيد عن بيروت وعاونه في بنائه الامبراطور زينون ويوحنا حاكم المدينة

اما مدرسة الحقوق فاقول فيها كلمة مختصرة لان مؤلفات عديدة وصفتها وصفاً كافياً وافياً ، وغرضي من ذلك ان اذكركم باسماء بعض تلاميذها الذين لمعوا في سماء القداسة والعلم ، كالقديس غريغوريوس العجائبي ، واخيه تيودور ، والقديس اثيندور ، والفتى افيان الشهير الذي مرّ ذكره . فاتمنى من صميم الفؤاد ان ارى بين هؤلاء الطلبة الملتفين حولي اقراناً لاسلافهم المجيدين

* * *

ليعلم السادة ، ان بيروتنا اليوم لا تختلف عن بيروت القديمة اختلافاً محسوساً ولا اعني بذلك البنايات والقصور بل الاخلاق والآداب . لقد وجد في بيروت سحرة ورقاة ، ومجاثون عن الركاز (المخابي) وندعوهم اليوم « المغاربة » ، وكان فيها دور للملاهي والخلاعة يقبل المدارسون اليها ، اما من قبيل الفضول واما باغراء الرفقاء الاشرار . وكان فيها عصابات قتلة يستأجرون للفتك بالسكان الآمنين

غير ان امراً اخذ يتلاشى تماماً وهو سلطان الرؤساء الروحيين على الشؤون الزمنية المتعلقة بالامور الروحية . كان قسطنطين الظافر قد اقرّ لهم هذا السلطان في مرسوم ميلانو ، اعتباراً انهم اقوى سند للسلطة المدنية التي تتوخى جدّياً ان تصلح الاخلاق وتعلي مستوى الحضارة الوثنية . فبقوة هذا السلطان كان الاساقفة يجمعون كتب السحرة ويلقونها في النار امام الكنائس كما جرى في بيروت مراراً ، وكانوا يعاقبون المؤمنين الملتجئين الى السحرة ، فيقون بهذه الواسطة السذج من شعوذات الرقاة والباحثين عن المخابئ . وكانوا يسهرون على الشبيبة ليبعدوها عن الملاهي المفسدة

الاخلاق ، القائلة نضارة الشبان وحميتهم وقوتهم الواجب تخصيصه بالدرس والمطالعة ، وبهذه الرقابة كانوا يخدمون اهل هؤلاء الطلبة ويحفظون التلاميذ من الانغماس في الملاذ . فهل أكون في مأمن من السخرية اذا اقترحت ان تعاد هذه السلطة للاساقفة ، او لا تكون رقابتهم انفع واجدى للاخلاق والدروس ؟

وقد سخرت العناية مرات الحوادث الطبيعية لنصرة الاساقفة ، لانه في عام ٣٤٩ زلزلت الارض زلزالها فخاف سكان المدينة الوثنيون والخطأة المشهورون ، فاهتدى اولئك وعاد هؤلاء الى السلوك بموجب الشريعة . غير انه ما كادت الارض تستوي على محورها حتى انتكص المرتدّون على اعقابهم وعادوا يعمهون في ظلمات الاضاليل والذنوب

وفي سنة ٥٥١ حدث زلزال عظيم جعل بيروت قاعاً صفصفاً ، فتهدّمت الكنائس ، والمدارس والمسارح والقصور ، ولم يبقَ فيها حجر على حجر . ومن الكنائس التي سقطت في ذلك اليوم كنيسة ام الله ، وكانت قريبة من المرفأ ؛ وكنيسة القيامة ، وكنيسة القديس يهوذا ، وكنيسة المخلص ، وكنيسة الشهداء الاربعين . وقبل ان ينقضي قرن بكامله تتوارى بيروت المسيحية ، ولا تعود اذان سكانها تسمع أنشودة القديس جرجس البطل المغوار الذي قامت كنيسته خارج الاسوار ، وكان المسيحيون يتغنون بها ولا تزال آثارها في مديحة بالشعر العامي اذكر جيداً ان نساء وفتيات عاملات في معامل الحرير كنّ ينشدنها في المعامل المذكورة بعد طلبة السيدة العذراء ، قائلات :

« نار جرجس يليق المدح والنيّة لانه شريف وسلطان المنازيّة »

ولا بد لنا ان نخص بالمدح القديسة مَطرونا ، الامرأة الشريفة صاحبة الفضائل . الراهنة التي بعد ان أسست ديراً للراهبات في مدينة حمص ، ما عتمت ان جاءت بيروت فردّت الى الايمان كثيراً من النساء الوثنيات وبنت ديراً للعذارى المتعبدات . وكذلك رومانوس المرتّل الذي نظم نحو الف انشودة روحية نالت شهرة واسعة

ومما يروقكم سماعه قصة المصاب الحزبي ، استخلصتها من رواية نُسبت الى القديس اثناسيوس وتُليت في مجمع نيقية الثاني وهاكموها :

لما كان عدد اليهود قد كثر في بيروت ، وجدوا في بيت كان يقطنه منذ القديم عائلة مسيحية ، صورةً تمثل يسوع مصلوباً . فاخذوا الصورة الى مجمعهم واوسعوها اهانةً وشتماً ، وطعنها بعضهم بحربة في جنبها ، فجرى للحال دم وماء ، مسّها كثير من السقماء فنالوا الشفاء لساعتهم . فلما عاين اليهود هذه الآيات آمن منهم جمع كبير ، وحوّل مجمعهم الى كنيسة دعوها «كنيسة المخلص» . ومنذ ذلك اليوم جعل سكان بيروت اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني عيداً سنوياً ، ذكراً خالداً لهذه الآية يحتفلون به احتفالهم بعيدي الميلاد والفصح . واني لارجو من حضرة الاب لامنس ان يدلكم على الموضع الذي أقيمت فيه هذه الكنيسة فانه اقدر من سواهُ على تعيين محل هذه الامكنة

* * *

والآن قد حان لنا ان نلقي نظرة على بيبلوس (جبيل) التي انشأ فيها كنيسةً القديس بطرس هامة الرسل ، وسقّف عليها رفيقه وتلميذه يوحنا مرقس . وممن خلفوه على كرسي هذه المدينة باسيليوس الذي حضر مجمع القسطنطينية ، وروفينوس احد اباء المجمع الخلقيدوني

وجبيل مسقط رأس القديسة اكوبلينا التي تقدمت الى الموت من اجل المسيح ، ولم تتجاوز الثانية عشرة من سنيها

ولبتريس (البترون) اساقفة نعرف منهم بورفيريوس الذي اشترك في مجمع خلقيدونية ، واسطفانوس الذي حضر المجمع المسكوني الخامس . اما سلفه ايليا فقد ربطه عن التصرّف بالجريات ابيفانيوس مطران صور ونيسه لانه انحاز لساويروس الدخيل وانتحل هرطقته

ومن شهداء هذه المدينة القديس لوقيوس — وحرّف بعضهم اسمه وسمّوه لوجيوس — وهو المعروف عند اللبنانيين باسم نوهرا ، وله عندهم منزلة عالية واكرام ممتاز ، ولاسيما في سمار جبيل حيث أقيمت على اسمه كنيسة يؤمّها الزوار من كل فجّ وصوب استشفاء من امراض عيونهم

ومن المدن التي زارها القديس بطرس طرابلس ، ويروي لكويان عنها ان هذا الرسول سقّف عليها مارون وكان قديساً . وبعض خلفاء هذا الاسقف الجليل

هلانيكس ، ثم تيودور : الاول احد اباء مجمع نيقية ، والثاني احد اباء المجمع الخلقيدوني

وفي هذه المدينة ذاق الموت حباً بالمسيح الشهيدان الجليلان مقدانيس ولاونسيوس الجندي . وهذا كان من طرابلس نفسها وقد أقيمت لاكرامه كنيسة كان يتوافد اليها الزائرون من كل قطر . ويقصد اليها عدد من بلاد قاصية ليقبلوا المعمودية على قبر هذا الشهيد ، ومنهم ساويروس الدخيل وايفغريُس المؤرخ

انها لعجيبة والحق يقال سرعة انتشار التبشير بالمسيح في فينيقية الساحلية ، وتنظيم المراتب البيعية فيها . وعجيب ثبات هذه الكنائس مدّة ستة قرون ، ازاء الحملات العنيفة التي حملها عليها المضطهدون والمراطقة دون ان يعتريها وهن ، وان تمكن المبتدعون من استجلاب بعض اعضائها . فانها استمرت تحيى بحياة الكنيسة الكثوليكية ، وتشترك في كل مظاهر تلك الحياة ، راسخة في عقيدتها ، الى ان دالت الدول المسيحية فعتبها غيرها في الحكم . فبادت تلك الكنائس الزاهرة وعمّ الخراب جماعة المؤمنين

أجل قد بقي بعض كنائس منظمة لكن المراطقة وضعوا ايديهم عليها ، لانهم ما اكتفوا بان تمتوا هذا الانقلاب بل ساعدوا عليه فجاء عملهم الشائن متمماً لرغائب فاتحي البلاد الباحثين عن طريقة يستجلبون بها قسماً من النصارى ، ليوقعوا الشقاق بينهم فيبتنبّ لهم الامر دون كبير مشقّة ، ويقطعوا الرّبط التي كانت تربط الشرق بالغرب وتوحد كلمة المسيحيين

* * *

بيد انه قبل ان يتم هذا الخراب الذي باشره المراطقة المتنوّعو المذاهب كآريوس ، ونسطوريوس ، واوطيخا ، وساويروس ، كانت عناية الله قد سبقت فهيأت اسباب ارتداد اهل فينيقية الجبليّة ، الذين اصبحوا بعد اهتدائهم شديدي الطاعة للكرسي الروماني المقدّس ، ثم جعلهم الله مثالاً حيّاً ، ما بين بدَع كثيرة تزّقها الشقاقات الداخليّة ، للخضوع التام لخليفة بطرس الرسول ، نائب المسيح على الارض . فكأن الجبليين ، بايمانهم القويم ، صاروا سفينة خلاص في بحر

تلك المرطقات المتلاطم الامواج ، المخوف بالظلام الدامس والخطر المستمرّ ، حتى ان الشعب اضحى لا يعلم اين هي الحقيقة ولا ما هي الطريق المؤدية اليها

وقد خاف القديسون انفسهم ان يضلّوا سواء السبيل ، فوجّهوا انظارهم الى رومية ، عمود الحق المنير ، يسألونها ان تبدّد غيوم القلق والريب عن قلوبهم . وحسبي ان اقدّم لكم مثلًا يوقفكم على هذه الحالة : ان انطاكية ، ام الكنائس الشرقيّة ، كانت متبلبلة في عهد القديس ايرونيموس ومنقسمة اربع فرق : النيقاويين القدماء ، والنيقاويين الحديثين ، والاريوسيّين ، والابوليناريين . فازاء هذا التفريق اضطرب القديس ايرونيموس وأشكلت عليه معرفة حقيقة احوال هؤلاء النصارى فاستغاث برومية . ومثله فعل تودوريطس اسقف قورس الذي كان من فطاحل العلماء الكنسيّين ، ذكيًّا نشيطاً مكبًّا على العمل . ولم ينجُ من هذه الحالة النفسية القديسان العظيمان باسيليوس الكبير ويوحنا فم الذهب ، وجميعهم رفعوا امرهم الى بابا رومية طالبين منه الفصل في كل تلك المعضلات . فرومية كانت ولا تزال المنارة المرسلة اشعتها على الشرق والغرب ؛ والخضوع لها كان وسيكون ابدًا العلامة الفارقة الكاثوليكي من غير الكاثوليكي ، وصوتها مسموع على شواطئ البوسفور كما على ضفاف نهر العاصي

قلت ان العناية الصمدانية كانت قد اعدّت الوسائط لتكوين جرثومة كاثوليكية تتميز عن سواها بعلامة عملية خارجة فارقة هي الطاعة للحبر الروماني ، واليكم كيف تمّ الامر :

كثيرون من البررة ابتعدوا عن ميدان تلك الفتن والشقاقات الاهلية التي لا نهاية لها واعتزلوا الى الاودية او قمم الجبال او شقوق الصخور والاشجار ليعبدوا الله في السلام والسكينة والزهد . فاستخدمهم الله لارشاد غيرهم الى سبيل الخلاص . فان ما نالوه من شهرة قداسة وفضل ونسك ، وما كان الله يجترحه من الآيات على ايديهم ، كان يجلب اليهم الزوّار والاعلاء والراغبين في الوقوف على الاحوال فيرجعون من عندهم مستفيدين نفساً وجسداً محمولين على حب الفضيلة وتائبين . وكان هؤلاء الزوّار يأتون من بلاد العرب نفسها

(للبحث صلة)